

قيام الإمبراطورية المغولية

د . أحمد شريفي

قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2-

تأسست الإمبراطورية المغولية على عائق قبيلة "قيات" Kait، وعلى يد تيموجين الذي ولد عام 549 هـ (1155م) بإقليم "بولون بولدق" الواقع على الضفة اليمنى لنهر "أونون" Onon، وأنه أخذ اسمه الأصلي هذا من أمير تغلب عليه أبوه "يسوكاي بهادر" أثناء ولادته¹.

وشاعت الأقدار أن توفي أبوه عام 561 هـ / 1167م، وكان ولده الأكبر تيموجين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة فترك له أعباء كثيرة ومسؤوليات جساما، وبخاصة أنه الوريث الشرعي لرئيس القبيلة، علاوة على رئاسة حلف مغولي كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين². وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه أن حلوا الحلف عقب وفاته مباشرة³. كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف ورفضت طاعته، وأعلنت التمرد والعصيان والتفت حول زعيم آخر⁴.

¹ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 212، Douglas, op cit., p. 347; D'ohsson, op cit., T. I, p. 68; Renald, Histoire générale de l'Asie, p. 60.

² أنظر : Ravny, Gengis Khan et les Mongols, p. 67; Grousset, L'empire des steppes, p. 59; Cahun, op cit., p. 39.

³ أنظر : Fredery, Les Tartares dans l'histoire, pp. 41-45; Lamb, a vie de Tamerlan, pp. 32-36.

⁴ أنظر : غروسي : المرجع السابق، ص 79، الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 42، عبد العزيز فهمي : المرجع السابق، ص 32.

فاضطر تيموجين وأمه وإخوته أن يهيئوا على وجوههم، وقضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والأسماك بعد أن تخلى عنهم الناس جميعاً، وذاقوا مرارة الجوع والحرمان¹.

وكان لهذه السياسة الانعزالية، التي فرضت عليه من بني قومه، أثر إيجابي في تكوين شخصيته، حيث عاش تيموجين بين أحضان الطبيعة القاسية التي وهبته قوة جسمانية رهيبية، وتعطشا لسفك الدماء، وحقدا على المجتمع، وذكاء متزايدا، وعنادا بليغا، واعتمادا على النفس².

وبهذا تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعي أسرته فتحسنت حالته المادية ووقفت بجانبه أمه في نفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها³. ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسمت فيه زعامة مقبلة، بعد أن بلغ سن السابعة عشرة من عمره⁴. كما حاول إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة إلى القبيلة، أما أولئك الذين رفضوا الانصياع له فإنه اشتبك معهم في قتال رهيب انتصر فيه آخر الأمر⁵.

وما أن دانت له قبيلته برمتها وجه آلة دبلوماسية نحو سياسة التحالفات والمعاهدات لتدعيم سلطته السياسية التي بدأت تطفو على مسرح الأحداث

¹ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 69؛ غروسي : المرجع السابق، ص 80.

² أنظر : Jaquet, op cit., p. 42; Oder, op cit., T. 2, p. 324.

³ أنظر : غروسي : المرجع السابق، ص 81، أحمد حمدي : المغول والعالم الإسلامي، صص 34-30، رأفت حسين : الغزو المغولي للعالم الإسلامي، صص 45-49؛ D'ohsson, op cit., T. I, p. 71.

⁴ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 70؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 43.

⁵ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 71؛ Choo-Hung, op cit., p. 45؛ Toung-Poo, op cit., pp. 43-44; Rolon, Les Mongols, pp. 56-58.

السياسية في الإستبس¹. وتطبيقا لذلك توجه إلى حيث ينزل "طغرل"² زعيم "الكرايت" Krait، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه وخاطبه "سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين أبي، فأنت الآن في مقام أبي".³ وبهذا واصل تيموجين خطة والده في الزعامة والتوسع على حساب المناطق المجاورة متحالفا مع قبيلة الكرايت، وإمبراطورية الصين الشمالية المعروفة بـ "كين"⁴. وأحرز نصرا حاسما على عدوه "تركوتاي" زعيم قبيلة "التايجوت"، كما بسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبي حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم عمل بعد ذلك على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى⁵.

كان للانتصارات التي أحرزها تيموجين، واتساع نفوذه، وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها رد فعل من قبل حليفه رئيس الكرايت "أونك خان"⁶ -خليفة طغرل- حيث أخذ ينظر إليه بقلق وحيرة، ومن هنا أخذ يعمل على وأد أعماله، حتى لا يستقل أمره، ويصعب عليه بعد ذلك معاملته⁷. وفهم تيموجين قصده وسياسته، وعلم بما يدبر له في الخفاء، ونتج

¹ أنظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول، ص 47.

² كان هذا الأخير يعرف عند الغرب بـ "القديس جون"، يعتبر نفسه بمقام الوالد بالنسبة لتيموجين، لأنه شرب مع أبيه نخب الصداقة الأبدية التي تحتم على أي منهما مساعدة أولاد الثاني، فيما إذا دعت الحاجة. أنظر غروسي : المرجع السابق، ص 44.

³ أنظر : Toung-Poo, op cit., p. 49; Choo-Hung, op cit., pp. 48-50. ورشيد الدين : نفسه، ج 1، ص 72؛ غروسي، نفسه، ص 82.

⁴ أنظر هارولد لام : المرجع السابق، ص 41؛ D'ohsson, op cit., T. I, p. 72.

⁵ أنظر : Ch'ang-Ch'un, L'empire de Genkis-Khan, trad. Conny, p. 83; Lamb, op cit., p. 55; Grousset, L'empire mongols, T. I, p. 43.

⁶ أنظر غروسي : المرجع السابق، ص 83، حافظ حمدي : المرجع السابق، ص 50.

⁷ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 73؛ Howorth, op cit., p. 201; Rolau, op cit., p. 59; Jaquet, op cit., p. 46.

عن ذلك أن اصطدم الفريقان في معركة شديدة انتهت بقتل خان الكرايت عام 1203م¹. ثم استولى تيموجين على عاصمته "قره قورم" وجعلها قاعدة له، وبذلك أصبح أقوى شخصية مغولية².

وحدث أن قام تيموجين عام 1204م بغارة على قبيلة "النايمان"³ وهزمهم عند حدود جبال آلتاي، وبعد الاستيلاء على النايمان تمكن من إخضاع قبائل أخرى من المغول، كانت تقطن عند حدود التبت والحدود الشرقية لتركستان⁴.

كما تمكن من هزيمة القرغيز⁵، وهي إحدى القبائل التركية القومية المجاورة للمغول والتتار. أما ملك الأويغور¹ فإنه أسرع بتقديم ولائه وطاعته لتيموجين².

¹ أنظر : D'ohsson, op cit., T. I, p. 73; Lamb, op cit., p. 62-64.

² أنظر غروسي، ص 85.

³ من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي، وهم يقطنون الحوض الأعلى لنهر "أرخن" ومنحدرات جبال التاي، وحول البحيرات الواقعة في تلك المناطق. ويدينون بالمسيحية. وكان هؤلاء بدوا رحالة يقيم بعضهم في مناطق الجبال الوعرة والبعض الآخر في الصحارى، وكانت عاداتهم وتقاليدهم تشبه عادات المغول. وقد حاربهم تيموجين وقتل ملكهم "تايك خان" عندما علم بسوء نيته وتآمره عليه. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع : الصيد : المرجع السابق، ج 1، صص 29-30، وكذلك : D'ohsson, op cit., T. I, pp. 74-75.

⁴ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 75؛ هارولد لام : المرجع السابق، ص 45؛ Bouvet, op cit., p. 78; Grousset, L'empire mongole, T. I, pp. 39-43.

هم من الترك، كانوا ينزلون في أعالي نهر "ينسي"، واتخذ أميرهم لقب خاقان في القرن الثامن⁵ (نقش أرخون) على أنهم لم يشتهروا من الناحية السياسية إلا حوالي 226 هـ (840م) حينما انتزعوا أراضي الأويغور في منغوليا، وامتدت بلادهم حتى المحيط، ولم يلبث الخطأ أن طردوهم من منغوليا في أوائل القرن العاشر الميلادي، بينما احتفظ الجانب الأكبر منهم بمنازلهم في أعالي نهر ينسي. لمزيد من التفاصيل راجع : : الصيد : المرجع السابق، ج 1، ص 30؛ غروسي : D'ohsson, op cit., T. I, p. 70; Bouvet, op cit., p. 72; Lamb, op cit., p. 68.

ولم يأت عام 603 هـ/1206م حتى دانت له القبائل المغولية والتركية المتواجدة بين نهري أمور في الشمال الشرقي، وتاريم في الجنوب الغربي، أي كافة المناطق الواقعة خارج السور الصيني³. وحينئذ عقد مجلس النبلاء⁴، ونودي به خانا أعظم، ولقب بجنكيز خان⁵، وبذلك ولدت الإمبراطورية المغولية⁶.

¹ وهم من الترك، كانوا ينزلون شمال منغوليا على نهر "سلنجا" واتخذ أميرهم لقب "التابير" وهو أدنى مكانة من لقب خاقان، وكانوا أكثر الأقوام التركية تمدنا، وفضلا عن ذلك كانوا واسطة الارتباط بين الأقوام المتمدنة من إيرانيين وصينيين وهنود، وقد عرفوا الأديان المختلفة من مانوية وبوذية ومسيحية. ونتيجة اختلاط المغول بالأويغوريين شاع الخط الأويغوري بين المغول، وأقبل هؤلاء على تعلمه، وصاروا يدونون به سجلاتهم وكتاباتهم. لمزيد من التفاصيل راجع : رشيد الدين، المصدر السابق، ج 1، ص 75؛ الباز، المرجع السابق، ص 29؛ غروسي، المرجع السابق، ص 74؛ عبد العزيز فهمي، المرجع السابق، ص 39.

² أنظر : رشيد الدين : نفسه، ج 1، ص 76؛ هارولد لام : المرجع السابق، ص 45، Cahun, op cit., p. 35; Grousset, L'empire mongole, T. I, p. 36.

³ أنظر : D'ohsson, op cit., T. I, pp. 76-77; Rolon, op cit., p. 64; Marc, : أنظر L'histoire de l'Asie à l'époque mongole, pp. 211-217; Blochet, op cit., pp. 45-47.

⁴ لقد شارك في مجلس الفوريلتاي-الشورى- جميع الأمراء الذين يمثلون الأسرة الملكية السابقة، وحرص تيموجين أن يوزع بين أنصاره الموالين له الوظائف الأساسية الحربية والمدنية، وفي هذا الإجتماع خاطب رعاياه "إنكم جميعا تخليتم عن "جاموكا" -من خصومه- وحرصتم على الإنحياز إلى جانبي فأنتم جميعا يا أصدقائي خير رفاق لي في المستقبل"، أنظر رشيد الدين، نفسه، ج 1، ص 89.

⁵ إن اسم جنكيز خان له معنى لغوي يختص بفكرة القوة من لفظة صينية مغولية Tching (القوة)، وهو يحمل معنى الملك الذي لا يهتز، أو حسب تفسير آخر الذي لا يلين، وأيضاً يحتوي مفهوم العالمية المفهومة ضمناً، وحرفياً (المحيط). أما كلمة "خان" فقد أطلقها المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية، ويختلف عن اللفظ "خاقان" الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم. لمزيد من التفاصيل راجع : رشيد الدين، المصدر السابق، ج 1، ص 90، الجويني : المصدر السابق، ج 1، ص 60؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص 367.

⁶ أنظر عبد العزيز فهمي : المرجع السابق، ص 43؛ غروسي : المرجع السابق، ص 84.

واتجه جنكيز خان بعدها إلى إصلاح الشؤون الداخلية لمملكته الناشئة، حيث حدد شارات ملكه، ونظم إمبراطوريته بأن وضع لشعبه دستورا اجتماعيا متينا، ودستورا حربيا لا يقل عنه قوة وصرامة، عرف بـ "الياسا" الذي نفذه المغول ومن انضم تحت لوائهم بكل دقة، وقدموه تقديس الكتب السماوية عند أصحاب الديانات المنزلة¹.

وكانت الياسا إحدى العوامل التي ساعدت على انتصار المغول وتوسيع إمبراطوريتهم، حيث تناول أمورا متعددة منها :

1. توحيد المعتقد أي الاعتقاد بفاطر السماوات والأرض يهب الملك لمن يشاء ويسلبه ممن يشاء وهو القوي الجبار حسب معتقدهم.
2. يعاقب بالإعدام كل من يعلن نفسه إمبراطورا خلافا لإرادة المؤتمر المغولي العام.
3. يمنع كافة الزعماء من غير المغول والعشائر الخاضعة لهم من حمل الألقاب الفخرية.
4. لا يجوز عقد السلم مع أي ملك أو أمير أو أمة من الأمم مهما كانت إلا بعد تقديم الخضوع للمغول.
5. مراعاة القاعدة العسكرية في تعبئة الرجال إلى عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف.
6. يتسلم الجندي السلاح من قائده المباشر حال ابتداء المعركة وعلى الضباط الاحتفاظ بالأسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة.
7. لا يجوز ذبح الحيوانات المصيدة، بل يجب ربطها وشق الصدر وإخراج القلب منها.

¹ أنظر غروسي، نفسه، ص 84؛ عبد العزيز فهمي، نفسه، ص 44؛ Blochet, op cit., pp. 55-56; Marc, op cit., p. 213; Toussy, Les Mongoles, pp. 62-65.

8. يعاقب بالإعدام من يسرق جوادا أو ما يساويه، وذلك بقطع جسمه إلى شطرين، أما عقوبات المسروقات الأخرى فتتوقف على نوعية المسروق وثمنه، وتتراوح العقوبة لهذه الأشياء بين سبع جلدات إلى سبعمائة، ويمكن تحويل الجلد إلى غرامة بمقدار تسعة أمثال الشيء المسروق.
9. لا يجوز الزواج من أقارب الدرجتين الأولى والثانية، ويجوز الزواج بأختين، ويحق للزوج اعتناء الجواري، ويسمح للنساء بتعاطي التجارة حسب رغباتهن.
10. لا يجوز للأفراد الخاضعين للمغول تشغيل أي مغولي في أي عمل كان.
11. لا يجوز غسل الملابس أو الاستحمام في المياه الجارية أثناء الرعد والصواعق.
12. يعاقب بالموت أي ضابط أو زعيم لا يقوم بتأدية واجبه أو عند رفضه الحضور أمام الخاقان.
13. يعاقب بالإعدام كافة الجواسيس وشهود الزور والمشعوذين، ونوي السمعات السيئة.
- ولقد حتم جنكيز خان على كافة الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين الالتحاق بالجيش عند النفي¹.
- وقد تحدث المقريري عن القانون المغولي بشيء أشبه بما ورد في النص الأصلي للياسا أو (الياساق) أو (جساق) بالمغولية، فذكر "... أن جنكيز

¹ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 91؛ القلقشندي، ج 4، ص 369؛ الجويني : المصدر السابق، ج 1، صص 64-65؛ عبد القادر اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب، ص 192؛ Toug-Poo, op cit., pp. 52-54; Saging Sichino, Les Mongoles, trad. 192; Defrasene (J.), pp. 89-92; Choo-Hung, op cit., p. 55; D'ohsson, op cit., T. I, p. 79.

خان القائم بدولة التتار في بلاد المشرق قرر قواعد وعقوبات أنيبتها في كتاب سماه "ياسه" ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح وجعله شريعة لقومه، والتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم¹.

وما أن استتب له الأمور الداخلية حتى وجه آلة سياسته نحو الخارج حيث كان من المؤكد الاصطدام بإمبراطورية الصين الشمالية، نتيجة فرار مجموعة كبيرة من المعارضين لسياسته إلى الصين حيث أسرة "كين"²، هذا من جهة ومن جهة أخرى سياسة "كين" المدعمة للمعارضين من الطوائف الإيستيمية للثورة ضد جنكيز خان وسياسته التوسعية على حساب هؤلاء³. وأمام هذا الوضع أعلن جنكيز خان الحرب على الصين الشمالية، فاشتبك مع الصينيين الشماليين لأول مرة عام 608 هـ/1211م، فاستطاع أن يحرز جملة من الانتصارات، وبذلك خضعت له البلاد الواقعة داخل السور الصيني، وعين عليها حاكما من قبله وهو نجليك⁴.

إن الحرب التي شنها جنكيز خان على الصين الشمالية حشد لها منذ بدايتها جل القوى التي أمكن حشدها من القبائل والعشائر الإيستيمية بمختلف

¹ أنظر المقرئزي : المصدر السابق، ج 2، صص 220-223؛ الجويني : نفسه، ص 89.

² كانت الصين حقا تؤول عالما قائما بذاته وهي تتكون من أسرتين، أسرة "كين" في الشمال، و "سونج" في الجنوب، فالأسرة الأولى سمي شعبها (الجور شيت) واتخذ ملوكها الاسم الصيني "كين" والذي إذا ترجم حرفيا كان معناه "ملوك الذهب"، وعاصمتها بكين أغنى الأقاليم التي تقع على النهر الأصفر، وهم من أصل غير صيني. لمزيد من التفاصيل راجع غروسي : المرجع السابق، ص 235.

³ أنظر : Grousset, L'empire mongole, T. I, p. 75; Cahun, op cit., p. 55; Blochet, op cit., p. 59; Marc, op cit., p. 215; Toussy, op cit., p. 67.

⁴ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 113، Marc, op cit., p. 231; Lescot, 113، ص 1، Les invasions mongoles, pp. 123-131; Roget, .op cit., p. 138.

تركيباتها السياسية، حيث لم يبق من منغوليا حسب رواية المؤرخ المغولي ساحانج-سيشين والصيني تونغ بو سوى ألفين من الرجال¹.

وحدث عام 610 هـ/1213م أن عباً جنكيز خان قواته وتحركت صوب الصين الشمالية لإتمام الغزو للمرة الثانية، لكنه لم يتمكن من إخضاع الأسرة الصينية كلياً رغم انتصاره عليهم في بعض المعارك². وهذا نتيجة الظروف المناخية غير الملائمة، وحينها ارتأى ضرورة العودة إلى منغوليا سيما بعدما وصله نبأ تحرك المعارضة بها³. وأمام هذا الوضع أرسل رسالة إلى إمبراطور الصين "واي وانج" يعرض عليه فيها الصلح، ومما جاء فيه "كل ما تمتلكه في "شان تونغ" من أراضي، وكل ما يقع شمال النهر الأصفر من بلاد يعتبر ملكاً لي، فما أصبحت فيه من الضعف تقابله ما توافر لي من القوة، غير أنني أحب أن أتوقف عن المضي في القتال والفتح، إنما لا يتم ذلك إلا بشرط واحد، وهو أن تبذل من الضيافات والهبات لقادتي ورجالي، ما يجعلهم يخلدون إلى الهدوء"⁴.

وما أن اجتاز جنكيز خان سور الصين العظيم في طريق عودته إلى منغوليا حتى عدل إمبراطور الصين عن فكرة الصلح⁵. وشرع في تحصين مدنه وقلاعه، استعداداً لملاقاة عدوه المغولي، ونقل عاصمته إلى الجنوب

¹ أنظر : Saging, Si-Chorie, op cit., p. 102; Toung-Poo, op cit., p. 67; D'ohsson, op cit., T. I, p. 79; Grousset, L'empire mongole, T. I, p. 76.

² أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 124؛ D'ohsson, op cit., T. I, p. 82.

³ أنظر : Malle, La domination mongole en Asie, pp. 115-125; Garret, L'histoire de l'Asie au Moyen-âge, T. II, pp. 195-203.

⁴ أنظر رشيد الدين : نفسه، ج 1، ص 114؛ ابن العربي : المصدر السابق، ص 401؛ حمدي حافظ :

المرجع السابق، ص 115؛ Roget, op cit., p. 138.

⁵ ابن العربي : نفسه، ص 402؛ محمد السيوط : المغول والصين، صص 147-152؛ Nourvy, La civilisation chinoise, p. 39; Malle, op cit., p. 130.

لتكون أقرب إلى ساحة القتال تاركا "بكين" العاصمة الأصلية تحت حكم ابنه¹. فما كان من جنكيز خان إلا أن استدار بجيوشه، وعاد مسرعا إلى الصين²، التي لم تكن على أهبة الإستعداد النهائي، فاشتبك معهم جنكيز خان في معركة حاسمة سقطت على إثرها "بكين" في أيدي المغول عام 612هـ/1215م³.

وكان لسقوط عاصمة الصين في أيدي جنكيز خان صدى كبيرا، ذلك أن هذا الحدث اعتبر إنذارا للممالك الإسلامية الي آوت أعداءه الفارين من وجهه، في حين أنها لم تكن على أهبة الإستعداد لملاقاته⁴. فبمجرد عودة الخان الأعظم إلى منغوليا عام 613هـ/1216م استعد لتعقب أعدائه الذين فروا إلى الممالك الغربية⁵.

كان من الطبيعي أن يتوجه جنكيز خان نحو الغرب لتوسيع دولته، خاصة وأن "القرخطانيين"⁶ كانت من جهة الغرب والتي كان يتزعمها الملك

¹ أنظر : Pelliot, op cit., p. 223; D'ohsson, op cit., T. I, p. 83; Douglas, op cit., p. 450; Carret, op cit., T. 2, pp. 210-213.

² كان إمبراطور الصين يعتقد أن جنكيز خان لا يستطيع أن يتخلى عن فكرة الرجوع إلى منغوليا للقضاء على الفوضى هناك، لهذا الغرض عدل عن الصلح، إلا أن جنكيز خان أرسل فرقة عسكرية بقيادة ابنه إلى منغوليا، وهذا ما لم يكن في حسابان إمبراطور الصين. أنظر : Lescot, op cit., p. 126.

³ أنظر : Douglas, op cit., p. 453; Pelliot, Ibid.; Roget, op cit., p. 142.

⁴ أنظر غروسي : المرجع السابق، ص 402؛ Malle, op cit., p. 130.

⁵ أنظر : Lescot, op cit., p. 135; Carret, Ibid., T. 2, p. 205.

⁶ تقع بين مملكة الخوارزميين في الغرب، ومساكن المغول في الشرق، وأصل هؤلاء من قبائل "الخطا" النازحين من شمال الصين. وهم خليط من المغول والتانجوت، أسست مملكتهم عام 304هـ/916م على يد "تاي تسو" فمنح أسرته لقب "لياؤو"، نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم. وقد استمرت هذه الأسرة تحكم إلى غاية 519هـ/1125م، حتى طردهم شعب "تونجوزي"، حيث رحلوا إلى الغرب فأسسوا مدينة "أميل" وأخذوا في التوسع حتى وصلت حدودهم مشارف الدولة

"كورخان" والتي دب فيها الضعف وكثرت فيها الانفصالات¹، وطمع فيها الأعداء، وهذا مما سهل عملية إتهامها من قبل جنكيز خان عام 615هـ/1218م².

وبالقضاء على المملكة القراخانية تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية، التي كانت تخضع للقراخانيين، كما سيطر المغول على كل الأقاليم الواقعة تحت راية هذه المملكة³. وبذلك جاورت الدولة المغولية أملاك الدول الإسلامية الخوارزمية⁴.

وأمام شساعة رقعة أملاك جنكيز خان، وتعدد مسؤولياته وتقدم سنه، رأى أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم، وتحمل المسؤوليات والاحتفاظ بدولته، أن يقسمها عليهم وهو على قيد الحياة، طبقاً للتقاليد المغولية⁵. وفعلًا تم التقسيم على النحو التالي :

كان نصيب جوجي وهو أكبرهم والذي كان يشرف على شؤون الصيد وتنظيم القصور، وتزيينها، فأعطاه البلاد الواقعة بين نهر "أرتش" والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وتسمى عادة "القفجاق" ويطلق عليها اسم القبيلة

الخوارزمية. لمزيد من التفاصيل، أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 114؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، صص 22-23؛ Carret, op cit., T. I, p. 83; D'ohsson, op cit., T. 2, pp. 46-48; Malle, op cit., pp. 125-127.

¹ إنفصال حكامها المسلمين خاصة، علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وخضوع كل من الأمير "ادقون" الأويغوري لجنكيز خان عام 1209م، و "أرسلان خان" أمير "القرلق" عام 1211م الذي انضم للمغول وهو مسلم من أصل تركي. أنظر حافظ حمدي : المرجع السابق، ص 125.

² أنظر : Nourvy, op cit., p. 55; Roget, op cit., pp. 144-146.

³ أنظر النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 30؛ Carret, opcit., T. I, p. 48; D'ohsson, opcit., T. I, p. 111.

⁴ أنظر الذهبي : العبر في خبر من غير، ج 5، ص 44، ابن العبري : المصدر السابق، ص 403.

⁵ أنظر محمد السيوط : المرجع السابق، ص 150؛ D'ohsson, op cit., T. I, p. 112.

الذهبية، نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي، وقد مات جوجي قبل أبيه، فسلمت البلاد إلى حفيده "باتو".

وكان نصيب "جغتاي" بلاد الأويغور، وأقاليم ما وراء النهر و "كاشغر" و "بلخ"، و "غزنة"، وكان في حياة أبيه يشرف على القضاء والعمل، وتنفيذ أحكام "الياسا" وتوقيع الجزاء والعقوبات للمقصرين.

ونال "اوكتاي" المنطقة المنحصرة بين جبال "تارياجاي" وأطراف بحيرة "الاجول" وحو نهر "ايميل"، وكان مختصا في عهد أبيه بالشؤون المالية والإدارية وتنظيم شؤون الملك.

أما "تولوي" أصغر أبنائه والذي كان يشرف على شؤون الدفاع وأخذ مستشاري والده، فلقب بـ "اولغ نويان" أي الأمير الكبير، فقد حصل على منغوليا أي الوطن الأصلي للمغول¹.

وحدث في عام 624هـ / 1227م بعد عودة جنكيز خان من حربه ضد الدولة الخوارزمية، وإمبراطورية سونج الصينية أن توفي جنكيز خان وله من العمر اثنان وسبعون عاما². وجرت مواراة جثمانه بالقرب من جبل "يوركمان كالون"، وهو جبل يقع عند منابع نهري "اوتون" و "كيرولين"³.

¹ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، ص 118؛ الذهبي : المصدر السابق، ج 5، ص 46؛ ابن العبري : المصدر السابق، ص 404؛ النسوي : المصدر السابق، ص 34؛ محمد السيوط : المرجع السابق، ص 151؛ حافظ حمدي : المرجع السابق، ص 126؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 164؛ فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 100، D'ohsson, op cit., T. I, p. 136; Joachin, op cit., p. 134; Pelliot, op cit., p. 225; Douglas, op cit., p. 451; Grenard, op cit., p. 121; Roget, op cit., p. 121.

² أنظر رشيد الدين : نفسه؛ النسوي : نفس المصدر، ص 35؛ الذهبي : نفس المصدر، ص 44؛ D'ohsson, op cit., T. I, p. 145.

³ أنظر ابن العبري : نفس المصدر، ص 403؛ Nourvy, Ibid.; Roget, op cit., p. 144; Malle, op cit., pp. 148-149; Lescot, op cit., p. 167; Grousset, L'empire des mongoles, T. I, pp. 76-79.

وبعد انتهاء المدة المحددة للوصي على العرش -حكم تولوي الإمبراطورية مدة عامين، أي من سنة 624-626هـ/1227-1229م - اجتمع مجلس الشورى المغولي طبقاً للياسا في ربيع 626 هـ في "قوره قورم" وانتخبوا أوكتاي (1229-1241م) على عرش الإمبراطورية¹. لما امتاز به من اتساع في الأفق وعمق في التفكير، ونفاذ البصيرة، رغم ما كان لإخوته من صيت ذائع مثل شهرة "تولوي" في الشؤون العسكرية، وما اتصف به "جغتاي" من صرامة يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي تشكل نظام جنكيز خان الإداري والاجتماعي وتوسيع دائرة أملاك الإمبراطورية المغولية².

وما أن تولى "أوكتاي خان" العرش الذهبي حتى سار على نهج والده، واهتم بإتمام فتوحاته، فجمع الجيوش اللازمة لغزو الصين الشمالية "أسرة كين" التي كان جنكيز خان قد انتزع بعض الأجزاء منها، ونجحت الصين الشمالية في استرداد جزء كبير منها بعد رحيل جنكيز خان عنها³. وقد تحرك "أوكتاي" بنفسه مع أخويه "جغتاي" و "تولوي" إلى سهل "هوانج هو" ثم قسموا قواتهم إلى قسمين، فتوجه "جغتاي" نحو الشمال الشرقي، والخان الأعظم و "تولوي" نحو الجنوب، وانتهت المعارك بانتصار المغول على القوات الصينية، واستولوا على مساحات شاسعة من أراضيها⁴.

¹ أنظر غروسي : المرجع السابق، ص 112؛ فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 103؛

D'ohsson, op cit., T. I, p. 146; Joachin, op cit., p. 136.

² أنظر : Mullor, La Chine et les mongoles, pp. 80-87; Douglas, op cit., pp. 134-136.

³ أنظر : Muller, Ibid., Douglas, op cit., pp. 136-137; Rolon, Les mongoles au 13^e siècle, p. 44; Jeron, La Chine au Moyen-âge, T. 2, p. 120.

⁴ أنظر : Revon, Histoire générale de la Chine, T. 3, pp. 125-130.

وفي عام 631 هـ / 1233م قامت القوات المغولية بقيادة "يسوتاي" بمحاصرة مدينة "كاي فونج" وعلى إثر ذلك تقدم الوزير الصيني "بي ليوجوساي" إلى القائد المغولي ملتسما منه ضم المدينة¹ إلى أملاك المغول، وبهذا النصر تم للمغول الاستيلاء على الصين الشمالية².

وعلى إثر وفاة "أوكتاي خان" عام 639 هـ / 1241م اضطربت أحوال المغول فاختلفوا³ على من يخلفه على العرش الذهبي⁴. ولوضع حد للاختلافات بين أبناء الأسرة الجنكيزخانية انعقد مجلس الشورى المغولي (القوريلتاي) عام 644هـ/1246م، فانتخب أغلب الحاضرين "كيوك" 644-647 هـ/1246-1249م خانا أعظم للمغول⁵. وكان رجلا مغامرا محاربا

¹ لقد اختلفت الروايات في ذكر نهاية ملك الصين، فابن العبري يذكر في كتابه مختصر الدول صص 247-248 "قلما بلغه الخبر بما جرى لملكه وأصحابه ورعاياه، انتابه اليأس فجمع أولاده ونسائه وكل ما يعز على نفسه، ودخلوا بيتا من بيوت الخشب، وأمر بإشعال النار فيه فاحترق هو ومن معه أنفة من الوقوع في أسر المغول". أما رشيد الدين فيذكر : "قلما سقطت المدينة خاطب الأمراء قائلا : "لا أريد بعد طول هذه المدة من الحكم أن أقع أسيرا فأموت ملطخا بالدماء". وقد ذهب كل من "غروسي" في كتابه L'Empire des steppes, p. 301 و "دوسون" إلى مآذره رشيد الدين.

² أنظر : Barthold, Formation of the Empire of Jen'ghis Khan, p. 132.

³ اختلفوا فيما بينهم، فالأمير "باتو" ملك خانات جنوب روسيا كان ضد تولي عرش المغول أحد من أسرة "أوكتاي"، كما رغب "كوتاي" الإبن الأكبر "لأوكتاي" في تولي العرش، أما الفريق الثالث فكان راغبا في تطبيق وصية الخان بوضع حفيده "شيرامون" خلفا له. كما حاول أخو جنكيز خان "أوتجكين" أن يستولي على العرش عنوة إلا أنه فشل بسبب سياسة "توراكينا" والدة "كيوك خان" في استمالته إلى جانبها، والتي كانت تريد تنصيب ابنها "كيوك". أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 1، صص 65-68؛ D'ohsson, op cit., T. 2, p. 295.

⁴ أنظر : هارولد لام : المرجع السابق، ص 186، عبد العزيز فهمي، المرجع السابق، ص 102؛ Grousset, L'empire des steppes, p. 238; Muller, op cit., p. 98.

⁵ أنظر رشيد الدين : نفسه، ج 1، ص 135؛ Rolon, op cit., pp. 67-69; Toung-Poo, op cit., cit., p. 46; Jeron, op cit., p. 160-162.

ميالا إلى الغزو.¹ فلم يكد يسقر الحكم بين يديه حتى وجه آلهة الحرية لإتمام الفتح بالديار الصينية حيث كلف القائد "سبوتاي" بالتوجه نحو الصين الجنوبية "أسرة سونج" لضمها إلى أملاك الإمبراطورية المغولية، إلا أن الجيوش المغولية لم تحقق إنتصارات باهرة في عهده وذلك لقصر مدة حكمه.²

وحدث سنة 647هـ/1249م أن توفي³ "كيوك خان" فوقع خلاف جديد بين أفراد الأسرة الجينكيزخانية، حيث استمر النزاع بينهم قرابة عامين، وأخيرا حسم "باتق"⁴ الموقف واقترح عقد مجلس الشورى المغولي في 648هـ/1250م بالعاصمة المغولية "قوره قورم" وفيه أعلن "منكو" خانا رسميا للإمبراطورية المغولية.⁵

¹ أنظر : Rovant, op cit., T. 3, p. 130; Douglas, op cit., p. 136.

² أنظر : Lescot, op cit., p. 168; Nouriy, op cit., p. 57.

³ كان "باتو" معارضا في اختيار "كيوك" خانا أعظم للمغول، وهذا مما جعل "كيوك" -بعد توليه العرش- يحقد عليه ويصمم على قتاله، وتنفيذا لذلك سار على رأس جيش لقتال "باتو" مدعيا بأن الظروف المناخية غير مناسبة للإقامة بالعاصمة المغولية، إلا أن الأقدار لا حقته قبل أن يلحق بباتو سوءا. أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 220. Saging-Sichino, op cit., p. 97; Choo-Hung, op cit., p. 57; D'ohsson, op cit., T. 2, p. 301.

⁴ كان باتو على رأس المؤيدين لتتصيب "منكو" خانا أعظم لأنه سبق وأن شارك معه في التوسع المغولي تجاه روسيا، وممالك أوروبا الشرقية، فأتاحت له الفرصة لتقييم قدرات "منكو" الحربية والقيادة، هذا من جهة ومن جهة أخرى مكانة "باتو" الذي يعتبر أكبر وأعظم شخصية مغولية آنذاك. لمزيد من التفاصيل راجع : رشيد الدين : نفسه؛ Grousset, L'empire des steppes, p. 238; Rolon, op cit., p. 48.

⁵ أنظر : Altan, The Golden button, trad. Fasci, pp. 126-130; Erenjan, Jenghis-Khan, p. 232; Lescot, op cit., p. 168; Hubert, Grandem et suprematie de Pekin, pp. 106-110.

وما أن تولى "منكو خان"¹ 648-655 هـ/1250-1257م، العرش حتى أحيا سياسة المغول التوسعية، وأمر كبار الأمراء بالعودة إلى مراكزهم، وأجرى تعديلا بين المناصب الكبيرة لتنفيذ سياسته². فأعطى الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية إلى ثاني إخوته "قوبيلاي" وفوضه في حكم الصين وما يقدر على فتحه من بلاد³.

وفي السنة الثانية من حكمه صمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل وجهاز لذلك حملتين كبيرتين، الأولى : نصب عليها أخاه "هولاكو" وعهد إليه بالقضاء على طائفة الإسماعيلية وإخضاع الخلافة العباسية، والثانية : نصب عليها أخاه الأوسط "قوبيلاي" لفتح جنوب الصين⁴.

وفي عام 654هـ/ 1266م شرع "قوبيلاي" في إنجاز مهمته فصار على رأس جيش كبير لفتح أقاليم الصين الجنوبية، وكانت تحكمها أسرة "سونج" فاستطاع أن يفتح قسما منها، وفي نفس الوقت كان الخان الأعظم

¹ لقد امتاز منكو بالقيام بعدة إصلاحات قيمة على الصعيدين الداخلي والخارجي، حيث نظم الإدارة، ودعم الحكم بالياسا المغولية، وعامل الخاضعين للمغول معاملة جيدة، وخفف من الضرائب، وأصدر عدة مراسيم تنص على توطيد الأمن الداخلي، وأقام عدة تحالفات منها التحالف المغولي المسيحي. أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 245؛ Cho-Hung, op cit., p. 60.

² أنظر الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 208؛ Manat, L'histoire des mongoles, p. 135; Michail, The mongol empire, pp. 99-120.

³ أنظر فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 106؛ Muller, op cit., p. 110; Carant, Histoire de l'Asie, p. 67.

⁴ أنظر : Magakh, History of the mongol, p. 189; Erenjau, op cit., p. 134; Altan, op cit., p. 313.

يقوم بنفس المهمة في قسم آخر من تلك البلاد، تاركا أخاه "أريق بوقا" خليفة له في العاصمة المغولية¹.

وبينما كان "منكو خان" في غمرة الفتح وافته المنية، فترك "قوبيلاي" الميدان وانتقل إلى شمال الصين ليشارك في تعيين الخان الجديد². هذا في نفس الوقت الذي أعلن فيه "أريق بوقا" نفسه خانا أعظم على المغول، وذلك بتأييد من أقاربه وأفراد أسرته³. ولما علم "قوبيلاي" رفض النزول على قرار أخيه، وعليه قام بعقد مجلس خاص بمدينة "كي مبينج فو" الصينية عام 658هـ/1260م، وأعلن خلع أخيه، ونصب نفسه إمبراطورا على العرش الذهبي⁴.

ولم يكن من السهل على كبار أمراء المغول أن يقرّوا هذا التصرف، إذ لم يكن لهذا الاجتماع صفة شرعية، نظرا لأنه لم يمثل فيه كل فروع الأسرة الإمبراطورية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن "قوبيلاي" خرج عن تقاليد المغول، إذ أعلن نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، وصار مروجاً لهذه الحضارة، فكان إيذانا بالتخلي عن قوانين جنكيز خان الشديدة القاسية⁵.

¹ أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 215؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 216؛ فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 109؛ غروسي : المرجع السابق، ص 229.

² أنظر : Blochet, Les mongoles dans Revue archéologique, série 3, T. 30, pp. 202-231; D'ohsson, op cit., T. 2, p. 44; Feer, La puissance de la civilisation mongole, pp. 134-140.

³ أنظر : Blochet, Introduction à l'histoire des mongoles, dans Recueil des travaux relatifs, T. 32, pp. 165-176; Erenjau, op cit., pp. 134-136.

⁴ أنظر : Vlademir Seff, Jenghis-Khan, p. 136; Hubert, op cit., p. 115; Altan, op cit., p. 132; Grousset, L'empire des steppes, p. 239.

⁵ أنظر : Abel, Observation sur l'histoire des mongoles Orientaux, T. I, p. 139; Percheron, Les conquérants d'Asie, pp. 89-94; Pelliot, Chaitrens d'Asie Central et d'extérieure orient, dans Revue de l'Orient chrétien, T. 23, pp. 39-49.

وقد توجب على "قوبيلاي" أن ينتهج دبلوماسية حذرة تتمثل في إقناع مناوئيه، وهو ما فعله، إلا أنه لم يحقق نجاحا يذكر نتيجة رفض أعدائه، وتصميمهم على تولية "أريق بوقا"¹. وعليه غير "قوبيلاي" أسلوب التعامل من الدبلوماسية إلى أسلوب القوة، ودخل في نزاع مسلح مع أخيه واستطاع التفوق عليه واسره عام 658هـ/1260م². وبعد أن تخلص "قوبيلاي خان" 658-693هـ/1260-1294م من منافسه صمم على مواصلة فتوحاته في أقاليم الصين الجنوبية، وبذل في هذا المجال جهودا جبارة حيث لم يتم له الاستيلاء عليها نهائيا إلا في سنة 678هـ/1288م وبذلك قضى على أسرة سونج³.

وكنتيجة لهذه التحولات أصبحت منغوليا دولة خارج حدود الصين، ولا تتدخل في شؤونها بل بالعكس أصبحت مصدر قوة وتأييد للأسرة المغولية الحاكمة في الصين، وأصبحت أساليب حياة الخان الأعظم وبلاطه صينية، وكانت المصالح المغولية بصرفها قوبيلاي خان⁴ حسب وجهة نظر الإمبراطورية فقط، ولكن عمليا كانت هذه المصالح تخضع للتقاليد الصينية⁵.

¹ أنظر : Pelliot, Notes sur l'histoire horde-d-or, dans Ouvrage posthume, T. 10, pp. 11-20; Pelliot, Notes sur Marco-Polo, dans l'Ouvrage posthume, T. 27, pp. 33-45.

² أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 216؛ Vlademir, op cit., p. 140.

³ أنظر : Bavalo, Marco-Polo, p. 196; Manat, op cit., p. 137; Feer, op cit., pp. 141-142; Altan, op cit., p. 140.

⁴ أنظر محمد علي السيوط : المرجع السابق، صص 157-161؛ D'ohsson, op cit., T. 2, p. 44; Bavalo, Marco-Polo, p. 196; Manat, Ibid.

⁵ كان قوبيلاي خان متأثرا بالحضارة الصينية، فقد اهتم بالزراعة، فأصلح وسائل الري كما اهتم بالتجارة، فمهد الطرق وأقام عليها حراسة، كما قام بتنظيم البريد، وبالإضافة إلى هذا كان قوبيلاي ميالا إلى التشييد والتعمير، كما شجع العلم والعلماء وأرباب الحرف والصنائع، كما كان ميالا للمعرفة Wiegner, La Chine à travers les ages, pp. 98-102; Lamche, History of

سبق أن ذكرنا أنه بمجرد اعتلاء "أوكتاي" خان عرش الخانية، اهتم بإتمام الفتوحات التي بدأها جنكيز خان لغزو الصين وإقليم ما وراء النهر وأوربا¹ -ويهمنا في هذا المقام حروب المغول في إقليم ما وراء النهر والتي على ضوئها سيحدد نشأة الإيلخانية بها- إلا أن انشغال المغول بوفاة جنكيز خان والإعداد لمن سيخلفه ترك ميدان إقليم ما وراء النهر خاليا، نتيجة عودة القادة والأمراء للمساهمة في الانتخابات العامة². وفي هذه الأثناء عاد جلال الدين منكبرتي من غزنة وأخذ في جمع شتات الإمبراطورية الخوارزمية، ونجح نجاحا كبيرا في استرجاع الثقة بالنفس لبنى قومه³.

إلا أنه وبمجرد تعيين "أوكتاي خان" وقع الصدام بين القوتين الخوارزمية والمغولية في سهل أنزريجان، استطاع المغول من جديد إنزال الهزيمة النهائية بالدولة الخوارزمية عام 628هـ/1231م⁴.

وبمجرد وصول "كيوك خان" إلى عرش الخانية عمل على توطيد ما حققه المغول في إقليم ما وراء النهر، وفتح ما تبقى من المناطق، حيث أوفد القائد العسكري "بلجكتاي" لإتمام الخطة التوسعية، وجعل له السلطة العليا في

China, pp. 136-145; Posdneeff, Mongolian literature, p. 211.

¹ أنظر : Grousset, L'empire des steppes, p. 371; Charnoy, Essai sur la civilisation Timuride, pp. 42-44; Alamanach, The heritage of Jenghis-Khan, pp. 81-83.

² أنظر رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 295؛ D'ohsson, op cit., T. 2, pp. 51-52; Morel, Les compagnes mongoles au XIII siècle, pp. 207-209.

³ أنظر النسوي : المصدر السابق، صص 246-249؛ ابن العبري : المصدر السابق، ص 420؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 9، ص 230؛ Charnoy, op cit., p. 47.

⁴ أنظر النسوي : المصدر السابق، ص 247؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج 6، ص 277؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 230؛ عبد العزيز فهمي : المرجع السابق، ص 111.

الإشراف على شؤون بلاد الروم والكرج والموصل وديار بكر¹. ونصب محمود يلواج حاكماً على ممالك الخطا، وولى "مسعود بك" حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعين الأمير "أرغون" واليا على بلاد خراسان والعراق العجمي واذربيجان وشيروان واللور وكرمان وفارس وأطراف الهند².

وما أن وصل "منكو خان" العرش الذهبي وبعد التعديلات التي قام بها، أعطى بلاد فارس إلى هولاكو، ثالث إخوته وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخلافة العباسية وحرص "منكو خان" على إعداد حملة³ أخيه هولاكو إعداداً دقيقاً، وبأمر بنفسه ذلك فأمدّه بكثير من القوات التي مارست الطعن والنزال واقتحمت ميادين القتال⁴. ولم يكف بذلك بل أرسل إلى بلاد الخطا لاستدعاء ألف أسرة من الذين مهروا في استخدام أدوات

¹ أنظر الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص 231؛ Olso, Histoire des mongoles, p. 231; Alamanach, op cit., p. 92; Manat, op cit., p. 144; Sanders, Les Tartares, pp. 135-141.

² أنظر الصياد : نفسه، ج 1، ص 230، فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 111؛ D'ohsson, op cit., T. 2, p. 46; Manat, op cit., p. 144; Alamanach, Ibid.

³ اختلفت المصادر في عدد الحملة المغولية بقيادة هولاكو، وفي هذا الصدد يذكر رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ ج 2، ص 215 : أن عدد جيش هولاكو وصل قرابة 110 ألف جندي، في حين أن ابن الأثير يذكر في كتابه "الكامل" ج 9، ص 330 : أن عدد هؤلاء وصل 120 ألف جندي، أما ابن العبري صاحب "تاريخ مختصر الدول" فيقلل من عدد هؤلاء وينكر بأن عدد المغول وصل حوالي 80 ألف جندي.

⁴ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 235؛ أبو المحاسن : المصدر السابق، ج 6، ص 277؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 9، ص 381؛ الصياد : المرجع السابق، ج 1، ص

الحرب¹. كما قام باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان ليكونوا حرسا خاصا لهولاكو².

وفي عام 651هـ/1253م خرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول "قراقورم" متجها نحو الغرب³، وأمام هذا التحرك المغولي أسرع أمراء الأطراف إلى تقديم كافة التسهيلات لتموين الجيش، كما أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق، وعلى هذا النحو صار هولاكو وجنوده يقطعون الفيافي والمراحل والمنازل حتى وصلوا غلى سمرقند عام 653هـ/1255م⁴. ومن هناك وجه هولاكو عدة رسائل إلى بعض الملوك والأمراء قال فيها : "لقد أتينا هنا بناء على أمر الخان الأعظم وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء على تلك الطائفة، فإذا ساهمت معنا في تلك الحملة، بالجيوش والعدد والآلات، فسوف تبقى لكم ولاياتكم، وجيوشكم ومساكنكم، وستحمد لكم مواقفكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا نفرغ

¹ أنظر النسوي : المصدر السابق، ص 248؛ Karnov, Les tartares, pp. 201-205; Jobson, Les mongoles, pp. 93-97.

² أنظر : Choo-Hung, op cit., pp. 60-65; Altan, op cit., p. 138; Carant, op cit., p. 102; Michail, op cit., p. 115.

³ أنظر : D'ohsson, op cit., T. 2, p. 59; Karnov, op cit., pp. 206-208; Vlademir, op cit., p. 132; Grousset, L'empire des steppes, p. 241; Abel, op cit., T. I, p. 141; Morel, op cit., T. 2, p. 210.

⁴ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 235؛ ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية، صص 35-36؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 9، ص 382؛ العدوي إبراهيم أحمد : العرب والنتار، ص 58؛ الغراوي عباس : تاريخ العراق بين احتلالين، ج 1، ص 79؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 433؛ ترجمة نبيه أمين.

بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة، فسوف لا تقبل عذركم ونوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما قد يجري عليهم¹.

وفي عام 653هـ/1256م قام هولاكو بمحاصرة قلعة "آلموت" الإسماعيلية، التي استطاعت أن تصمد في وجه الجحافل المغولية التي لم تستطع فتحها إلا باستعمال الدبلوماسية الإستراتيجية، وبهذه الطريقة استطاع هولاكو اقتحامها، وحاول أن يكون مرنا معهم، إلا أن الخان الأعظم أمر بالقضاء عليهم، وهذا ما وقع فعلاً². وهكذا حقق الخان الأعظم للمغول هدفهم الأول وهو القضاء على الطائفة الإسماعيلية، ثم سار هولاكو لتحقيق الهدف الثاني المتمثل في الخلافة العباسية، وهذا ما وقع في صفر سنة 656هـ/15 أفريل 1258م، وبذلك حقق هولاكو ما كان قد خطه الخان الأعظم³.

وما أن تم لهولاكو فتح بغداد، وتحطيم الخلافة العباسية حتى رنا بصره صوب الغرب حيث بلاد الشام ومصر، وكان أول شيء أقدم عليه، أن كلف قائده "أرقيو نويان" بالسير إلى أربل، فتمكن منها، وبذلك أصبح المغول على حدود الشام⁴. فزحف عليها بعد تنظيم جيشه وخططه الحربية، وآلت له الدبلوماسية، فاستولى على "ميفارقين" عاصمة ديار بكر، ثم "تصبين" و

¹ أنظر : رشيد الدين : نفسه، ج 2، ص 237؛ المقرئزي : المصدر السابق، ج 1، ص 373؛ Also, op cit., pp. 48-49.

² أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 240؛ الحافظ الذهبي : تاريخ دول الإسلام، ج 2، ص 138؛ لاسترنج : المرجع السابق، ص 294؛ Grousset, L'empire des steppes, p. 243; Vlademir, op cit., p. 132.

³ أنظر الحافظ الذهبي : نفسه، ج 5، ص 250؛ ابن العبري : المصدر السابق، ص 430؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 9، ص 251؛ Yuen-Shi, op cit., p. 81.

⁴ أنظر : D'ohsson, op cit., T. 2, p. 60; Also, op cit., p. 52; Abel, op cit., T. I, p. 143; Karnov, op cit., p. 211.

"حران" و "الرها" وفتح "حلب" وذلك عام 1260م¹. إلا أن وفاة الخان الأعظم "منكو خان" منعه من مواصلة زحفه، فاضطر إلى الرجوع، والتوجه إلى منغوليا²، تاركا وراءه جيشا مغوليا في سوريا بقيادة "كتبغا" الذي تمكن من فتح دمشق دون مقاومة³. وفي خضم الصراع الذي كان قائما بين أفراد من بيت جنكيز خان، أي بين "بركة خان" ابن جوجي خان القبيلة الذهبية، و "هولاكو" خان فارس والعراق وقعت معركة عين جالوت الشهيرة، التي وقعت كالصاعقة بالنسبة للمغول، والتي أعادت الثقة بالنفس للمسلمين وردعت الزحف المغولي نحو الغرب⁴.

وما أن وقعت هزيمة المغول على آذان "هولاكو" حتى أخبر الخان الأعظم الجديد "قوبلاي خان" بما حل بالمغول وبلغه أنه مصمم على الثأر والانتقام ومهاجمة الممالك والقضاء عليهم⁵، فما كان من "قوبلاي خان" إلا أن أصدر مرسوما يقضي بتولي "هولاكو خان" زديته البلاد الواقعة بين شط

¹ أنظر محمد علي السيوط : المرجع السابق، ص 161؛ فهمي عبد العزيز : المرجع السابق، ص 113؛ Abel, op cit., T. I, p. 144; Morel, op cit., pp. 218-220.

² أنظر الحافظ الذهبي : المصدر السابق، ج 5، ص 250؛ ابن العبري : المصدر السابق، ص 431؛ D'ohsson, op cit., T. 2, p. 58; Also, op cit., pp. 55-58.

³ أنظر ابن شاعر الكيني : فوات الوفيات، ج 2، صص 236-238؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 203؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج 9، ص 252.

⁴ أنظر : Karnov, op cit., p. 211; Carant, op cit., p. 110; Michail, op cit., p. 120; Manat, op cit., pp. 149-150.

⁵ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 241؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج 5، ص 51؛ Abel, op cit., T. I, p. 150.

نهر جيحون حتى بلاد الشام ومصر¹. وقام "هولاكو خان"، بعد صدور المرسوم بتقسيم مملكته على النحو التالي :

1. العراق وخراسان ومزندران إلى ابنه الأكبر "أبقا".
 2. آران وأذربيجان إلى ابنه "شينموت".
 3. بلاد الروم (آسيا الصغرى) إلى "معين الدين سليمان بروانه"، الذي كان وزيراً لسلاجقة الروم، ودخل في طاعة المغول².
- وما أن استتبّت الأمور حتى بدأ "هولاكو خان" يستعد لحرب المماليك، لكن الموت عاجله سنة 663هـ/1265م وله من العمر ثمان وأربعون سنة، بعد أن حكم إيران وغرب آسيا اثنتي عشرة سنة³. وبذلك فشلت خطة المغول الثأرية في عهد "هولاكو خان" منشئ الإيلخانية بإيران⁴.
- وفي عام 663هـ/1265م تولى عرش الإيلخانية "أبقا خان" وذلك بعد وفاة والده "هولاكو خان". وكانت الدولة المغولية في إيران والتي أرسى قواعدها "هولاكو خان" تشمل جميع الأراضي الممتدة بين نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات مع جزء كبير من الأناضول، وبعض أقاليم القوقاز⁵.

¹ أنظر : أبو الفدا : المصدر السابق، ج 2، ص 204؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج 5، ص 53؛ Wieger, op cit., p. 125; Posdneeff, op cit., p. 235.

² أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 243-55؛ D'ohsson, op cit., T. 2, pp. 55-243; Abel, op cit., T. I, pp. 143-145; 58; Grousset, L'empire des steppes, p. 250; Altan, op cit., p. 149.

³ أنظر : Jobson, op cit., p. 111; Charnoy, op cit., pp. 59-61.

⁴ أنظر : Sanders, op cit., p. 149; Lanche, op cit., p. 199; Rousson, Les mongoles et musulmans, pp. 123-125.

⁵ أنظر عبد العزيز فهمي : المرجع السابق، ص 113؛ محمد علي السيوط : المرجع السابق، ص 171.

وقد أسهمت والدته "دوقوز خاتون" أرملة والده المسيحية بالتعاون مع مستشارها الأرمني "وارتان" في وضعه على العرش الإيلكخاني¹. وكان حكام إيران من المغول يحملون لقب "إيلكخان" للدلالة على أنهم يتبعون الخان الأعظم، وظل هذا الاسم قائما حتى وفاة "قوبيلاي خان" عام 1294م، وقد حلت تلك الرابطة الوثيقة نهائيا عام 1295م باعتناق مغول إيران الإسلام، وتم هذا في عهد "غازان"²، ومنذ ذلك الوقت اختفى إسم الخان الأعظم من السكة في دولة مغول إيران³. وحل لقب "الخان" محل "إيلكخان"، ومع ذلك فقد جرت عادة المؤرخين على أن يطلقوا على عصر حكام إيران المغول حتى نهاية دولتهم سنة 756هـ/ 1355م اسم العصر الإيلكخاني⁴.

¹ أنظر : رشيد الدين : المصدر السابق، ج 2، ص 312؛ عبد العزيز فهمي : نفسه؛ محمد كرد علي : خطط الشام، ج 2، ص 107؛ حسن محفوظ : تاريخ بلاد الشام، ص 240؛ D'ohsson, op cit., T. 2, p. 90; Grousset, L'empire des steppes, p. 411.

² أنظر برتولد : المرجع السابق، صص 34-35؛ رفعت حسن : المماليك والمغول، صص 102-105؛ محسن جواد علي : الغزو المغولي لبلاد الشام، صص 75-78؛ عبد الرزاق حسن : بلاد الشام والمغول، ص 101؛ Manat, op cit., p. 180.

³ أنظر محمد علي السيوط، نفسه، ص 175؛ Rousson, op cit., p. 169؛ Sanders, op cit., p. 126.

⁴ أنظر : D'ohsson, op cit., T. 2, p. 93; Jobson, op cit., p. 113.